المجلد: 17 العدد: 02/ مارس 2022
ص: 819 - 828
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

سيميائية المكان و تشكيل الدلالة في المقدمة الطللية للشعر الجاهلي

THE SEMIOTIC OF PLACE AND THE FORMATION OF CONNOTATION IN THE TALALIAH INTRODUCTION FOR THE PRE-ISLAMIC POETRY

زهيرة بنيني *
جامعة باتنة 1 (الجزائر)
zahira.benini@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2021/05/31 تاريخ القبول:2021/08/09 تاريخ النشر: 2022/03/28

ملخص: شكل الشعر الجاهلي الأرضية الخصبة للتطورات المعرفية التي شهدتها الساحة النقدية المعاصرة بتعدد اتجاهاتها و مدارسها فرضت على النقد العربي التحاور مع الظروف الراهنة ، التاريخية و المعرفية ، و عوامل التحول و مرجعياته ، و الأبعاد الثقافية و عودته للتراث النقدي لأجل الدفاع عن الأصول الجمالية المتوارثة في ظل التحديات المعاصرة و التأكيد على الهوية. فسعت القراءات العربية بأدواتها الإجرائية الكشف عن بعض الجوانب الغامضة فيه ، و سبر أغواره للبحث عن الجماليات الغائبة عنا ، و تفجير إمكاناته الدلالية . إن الهدف من هذه القراءة السيميائية للمقدمات الطللية في الشعر الجاهلي ، هو البحث عن دلالة المكان و طريقة تشكيله من خلال فلسفة الشاعر في الحياة ، و تلونه بتجاربه المختلفة والصراع الذي يعايشه و الذي ولد عنده الشعور بالمفارقة ، الفناء و البقاء لتضعنا أمام ثنائيات عديدة كالثابت و المتحول مثلا ، و ما ينتج عنها من إيحاءات نابعة من طبيعة وجوده و الجماليات الدلالية التي تسهم في تشكيله.

الكلمات المفتاحية: السيمياء ، المقدمة ، المكان ، الشعر الجاهلي ، الدلالة

ABSTRACT : The Pre-Islamic poetry has formed the fertile ground for the cognitive developments in the contemporary critical scene, with its multiplicity of trends and schools, which imposed on Arab criticism the dialogue with the present historical and cognitive circumstances, the factors of transformation and its references, the cultural dimensions and its return to the critical heritage so as to defend the inherited aesthetic principles under the contemporary challenges and identity assertion. However, the Arab readings sought with their procedural tools to reveal some of its ambiguities, in order to probe its depths searching for aesthetics absent from us. Furthermore, to unlock its connotative potential. Thus, the purpose of this semiotic reading of the Talalia's introductions in pre-Islamic poetry is to search for the connotation of a place and the method of its formation through the poet's philosophy in life which is colored by his different experiences, in addition to the conflict he is experiencing that creates a sense of paradox, mortality and survival, to put us in front of many dualities such as the constant and the variant resulted from the connotations stemming from the nature of his existence and the connotative aesthetics that contribute to his formation.

Keywords: *:* the Talaliah introduction ، the pre-Islamic poetry ،Semiotic approach

* المؤلف المرسل

1 – مقدمة :

إن التطور الواسع الذي تشهده الساحة النقدية المعاصرة بتعدد اتجاهاتها و مدارسها فرضت على النقد العربي التحاور مع الظروف الراهنة ، التاريخية و المعرفية ، و عوامل التحول و مرجعياته ، و الأبعاد الثقافية و عودته للتراث النقدي لأجل الدفاع عن الأصول الجمالية المتوارثة في ظل التحديات المعاصرة و التأكيد على الهوية. فيثبت بهذه الازدواجية بناء خصوصيته المعرفية في ضوء هذه التحولات و محاولة الوصول إلى مرتبة التميز.

شكل الشعر الجاهلي الأرضية الخصبة لهذه التطورات المعرفية ، فسعت القراءات العربية بأدواتها الإجرائية الكشف عن بعض الجوانب الغامضة فيه ، و سبر أغواره للبحث عن الجماليات الغائبة عنا ، و تفجير إمكاناته الدلالية . و تعد الدراسات السيميائية واحدة من هذه القراءات التي تساعدنا في التوغل إلى عالم النص الداخلي و تفكيك نسيجه بهدف تفجير إمكاناته الدلالية ، و الكشف فيه عن القيم التعبيرية و أبعاده التواصلية ، اهتمت باللغة و نظام العلاقات لأنها : علم تفسير معاني الدلالات والرموز والإشارات وغيرها ، ويعدُّ من أحدث العلوم في ميادين اللغة والأدب والنقد ، وهو امتداد للألسنية . [1] إن السيميائيات عند **دوسوسير** العلم الذي يدرس حياة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية من خلال عدم الفصل بين مادة التعبير ومعنى التعبير . لأن الغرض من ورائه محاولة فهم النص وتفسيره من خلال مكوناته بالدخول إلى عالمه لإضاءة جوانبه المظلمة ، و كشف أسراره اللغوية . بحيث نبني فرضية حول نظام البناء فيه وطريقة ترتيب مكوناته وإدراك العلاقة التي تربط بينها. و هذه القراءة ما هي إلا قراءة تأويلية تكشف الجماليات المتخفية للنص الجاهلي .

إن للقصيدة الجاهلية دلالات و أبعاد و مستويات مختلفة ، تعددت دراساتها قديما و حديثا ، من نقاد عرب و مستشرقين ، فكانت لهم قراءات متنوعة ، و تأويلات مختلفة خاصة حول هيكلتها و بنائها الفني ، سلطوا الضوء على دراسة المقدمة الطللية بغية الوصول إلى الرؤى الذاتية للشاعر و نزعاته النفسية و اتجاهاته الفكرية و الفنية.

2 - الطلل و تجلياته في الشعر الجاهلي :

لقي المكان أهمية كبيرة عند الشعراء الجاهليين ،أحبوه مسكونا و خاليا ، حيا و ميتا ، تغنوا به في أشعارهم ، ففي المكان تتلاقى الأبعاد و تتماهى المسافات و يشترك المتلقي في رحلات متنوعة، يختفي الحد الفاصل بين المعرفة و اللامعرفة و تصبح الذاكرة واحدة، فيفعمه بإحساس طوافه لتلك الأماكن بالتفاعل معه:«فيصف أماكن وإقامات ومناظر طبيعية ينقلنا كما يقول **بروست Proust** بخصوص قراءاته الصبيانية خياليا إلى أقطار مجهولة تمنحنا للحظة الوهم بأن ننجو بها ونقطنها»[2]

كان المكان حاضرا في ذاكرة الشعر العربي أين يواجهنا الطلل في مقدمات الشعر الجاهلي خاصة، و الذي يعد دليلا على الصلة الوثيقة بين الشاعر و بيئته، فكان يشاركه في معاناته الروحية و الفنية و مواجهته لظروف الحياة.

الطلل واحد من أبرز السمات التي يقف عليها الشاعر ليبدأ بها قصائده ،مشكلا بها مقدمات تعطي للقصيدة قداستها ، يوضح **ابن قتيبة** أهميتها فيقول : " إن مقصد القصيد ، إنما ابتدأ فيه بذكر الديار و الدمن و الآثار ، فشكا و بكا و خاطب الربع و استوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهل الظاعنين عنها"[3]

إن أهمية الوقوف على الطلل دعوة للتذكر و البكاء ، و التأمل في جدلية الحياة ، البقاء و الفناء ، و لهذا فالبحث عن البنية الدلالية للمكان يجعلنا نكتشف جملة من الدلالات السياسية و التاريخية و الثقافية ، فالمكان يعد بؤرة النص و محوره الأساسي من خلال هذه المقاربة إذ تتوضح العلاقة بين الذات الشاعرة و الملامح الدلالية و ما تحويه من عناصر مادية و روحية و جمالية .

3 - الطلل / المكان الانتماء و الهوية :

إن للطلل دلالة مختلفة يكتسبها المكان ، تحيلنا إلى ارتباط الإنسان به بوصفه تعبيرا عن انتمائه للمكونات المادية و المعنوية للمكان ، و هذا الانتماء هو أحد أهم مرتكزات تشكيل هويته. حيث يحفر مسارات متعددة لأجل بناء علاقة حميمية معه ، و هنا يكون التفاعل بين الإنسان و المكان المحيط من حوله بحواسه المختلفة : إذ لا يستطيع أن يبرح المكان، والمكان يحتويه في حياته ومماته، فهو جزء منه لا يختلف عنه في شيء، بل يحمل من سابقيه الذين رحلوا بقية يقف عليها في كل طلل يخاطبها وتخاطبه[4] فمن المستحيل جدا عزل المكان وإنكار أثره على الذات الشاعرة لما يمكن أن يحمله من مشاهد وصور يمكن أن تذكي مخيلة الشاعر، وتثير كوامن الإبداع فيها . و تبرز جمالية المكان باختلاط عناصر من وهج الحياة و صخبها و من إشارات الغياب و الخلود . يقول **الحارث بن حلزة** :[5]

آذَنَتْـنَا بِبَيْنِهَا أَسْمَاءُ رُبَّ ثَاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّوَاءُ

بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَةِ شَمَّـا ءَ فَأَدْنَى دِيَارِهَا الخَلْصَاءُ

فَالمُحَيَّاةُ فَالصِّفَاحُ فَأَعْنَا قُ فِتَاقٍ فَعاذِبٌ فَالْوَفَاءُ

فَرِيَاضُ الْقَطَا فَأَوْدِيَةُ الشُّرْ بُبِ فَالشُّعْبَتَانِ فَالأَبْلاءُ

لا أَرَى مَنْ عَهِدْتُ فِيهَا فَأَبْكِي الـ يَوْمَ دَلْهَاً وَمَا يُحِيرُ البُكَاءُ

تعانق الذات الشاعرة المكان / الطلل بالتدقيق على تسمية كل جزء من الأماكن التي سكنتها أسماء ، من برقة إلى المحياة و مباشرة الصفاح و رياض القطا و الشعبتان ، فكانت حركة الانتقال سريعة بين مكان و آخر من خلال الحرف الرابط " الفاء " . فتشكلت جماليات انبعثت من التفاعل الذي تم بين تلك الشحنات الانفعالية بفراق الحبيبة و بعدها عن ديارها ، و الرحلة بالخيال الشعري من مكان إلى آخر عن طريق التذكر . نقف مع الشاعر عند لوحة مكانية تتشاكل فوقها خطوط و ألوان مختلفة رسمتها يده

ببكائه و ذكراه عند المكان الذي كان يرتبط به ارتباطا وثيقا و الذي يؤكد على انتمائه له عقليا و روحيا فهو مكان : الألفة والانتماء الذي يمثل حالة الارتباط البدئي المشيمي برحم الأرض/ الأم، ويرتبط بهناءة الطفولة وصبابات الصبا .[6]

يتفاعل الشاعر مع المكان بكل أحاسيسه يوحي بانتمائه و تمسكه بمقومات الحياة لأن : " المكان الذي نحبه يرفض أن يبقى منغلقاً بشكل دائم، إنه يتوزع و يبدو و كأنه يتجه إلى مختلف الأماكن دون صعوبة، و يتحرك نحو أزمنة أخرى و على مختلف مستوى الحلم و الذاكرة " .[7]

ذكر الشاعر المكان / الطلل واصفا الأجزاء الخارجية المحيطة به ، موضحا للقارئ الشعور القوي بالأمان و الحياة الذي ارتبط بتفاصيل المكان و بذات الشاعر ، مبينا العلاقة الوطيدة بينهما من حلال التعبير عن مستويين عام و خاص : المستوى العام يتحدد بمكان الطلل و ربطه بكل الجزئيات ،أما المستوى الخاص يمثل التجربة الذاتية و الشعورية للشاعر.

4 - دلالة الاغتراب:

يقف الشاعر إزاء الطلل وحيدا ضائعا غريبا ، تتولد الأفكار و تثور الأحاسيس وتنقل الحاضر إلى الماضي ومن ثم إلى المستقبل فيعيش الحياة البرزخية الما ورائية، و تتمخض الرؤية المغلفة بالرمز لتجد لها مكانا وزمانا مختلفين، هذه الرؤية التي تقوم بين الواقع ولا واقع ، بين الموجود و المغيب ونرى الخلاص في المستقبل الغائب رؤية قلقة يكتنفها الغموض .

يقول **زهير بن أبي سلمى** :[8]

أمنْ أُمِّ أَوْفَى دِمنةٌ لَمْ تَكَلَّمِ بِحَـــوْمَانَةِ الدُّرَّاجِ فَالمُتَثَلَّـــمِ

وَدَارٌ لَهَا بالرّقْمَـــتَينِ كأنّها مراجيعُ وشْمٍ في نَواشِرِ مِعْصَمِ

بِهَا العِيْنُ وَالأَرْآمُ يَمْشِينَ خلْفةً وَ أَطْـلاؤُهَا يَنْهَضْنَ منْ كُلِّ مَجْثَمِ

وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً فَلأيَاً عرَفْتُ الدَّارَ بَعْـدَ توَهُّمِ

أثافِيَّ سُفْعًا فِي مُعَرَّسِ مِرْجَل وَنُؤيًا كجِذْم الحوْضِ لم يتثلَّمِ

فَلَمّا عَرَفْتُ الدَّارَ قلتُ لِرَبْعِهَا أَلَا انْعَمْ صباحًا أيها الرَّبع واسلَمِ

تبَصّرْ خليلي هلْ تَرَى مِنْ ظَعَائِنٍ تَحَمَّلْنَ بالعَلياءِ مِنْ فوقِ جُرْثُمِ

يضعنا الشاعر أمام صورة للوقوف بالطلل مغتربا عن المكان ، وحيدا تجمعه به الذكرى ، تذكر للمكان الذي سكنته الحبيبة أم أوفى ، بتسميات مختلفة : حومانة ، الدراج ، الرقمتين ، و التي أصبحت صورة دالة على الخراب و الفناء ، و اكتست دلالة التحول بعد هجرها . بعد أن كانت تحمل دلالات الثبات بوجود سكانها فيها . و يؤكد **هاشم ياغي** هذه الرؤية عند زهير فيقول : " إن هذه الوقفة النفسية العميقة التي يقفها زهير ، في مفترق مفارق من الزمان و المكان ، زمان بأحداثه و خاصة بين الإنسان و الإنسان لم

يطمس كل معالم المكان و إن حال بين هذا المكان و بين الحديث عما حل به و بأهله . و من هنا كان زهير في دقة لافتة حين قال إن المكان لم يروا ما حل بأهله " أي لم يتكلم " و إن هذا المكان ما يزال قادرا على أن يستقبل حركة الكائنات الحية الجميلة ، و بذلك أوحى بقدرة هذا المكان على أن يستجيب للآمال البقاء عند الإنسان " [9]

ترسخ المكان / الطلل في روح الشاعر و وجد بداخله مسارات مختلفة ، فحين وقوفه أحس بالغربة الخارجية غربة المكان ، و بالغربة الداخلية غربة الروح ، و بين المكان و الروح علاقة حميمية تظهر كموقف إنساني يعايشه أي فرد إزاء الحياة بكل متغيراتها ، لأن موقف الشاعر أمام الطلل : " موقف إنساني ، و تجربة تمثل الصراع الذي يحدث في نفوسنا جميعا ، عند كل حدث جديد في الحياة ، و عندما يقف حائرا أمام ماضيه العذب ، و بين مستقبله و ما فيه من حياة مجهولة ، فإن ذلك يعبر عن موقف الإنسان الواعي بالحياة مع شعوره بضعفه أمام قوة الطبيعة " [10]

تولدت في هذا المكان ، دلالات الثبات و التحول ، و ساهم عنصر الزمن في توطيد العلاقة الضدية التي تجمع بينهما في المكان الواحد :

وقفت بها من بعد عشرين حجة فنأيا عرفت الدار بعد التوهم

يدل طول المدة الزمنية على طول غربة الشاعر عن مكانه ، و العودة إليه أثارت فيه الشعور بالخوف لعدم معرفة الديار إلا بعد جهد جهيد لأجل تذكر التفاصيل الصغير ة ، فالماضي يسكن الحاضر للتبلور رؤية المستقبل ، و منه فالطللية أكثر من تعبير عن الواقع الجاهلي كقائم راهن ، لأنها تجسد برهة التحول من الماضي إلى المستقبل ، إذ هي تختزن الماضي كنقيض مباشر للحاضر ، و كمطابق صميمي للمستقبل المأمول " [11]

أشار الشاعر بعد وقوفه عند المكان / الطلل إلى وجود حياة قد كانت هاهنا عادت بفعل هزة زمنية ، أو زلزال زمني حسب تعبير باشلار : " حتى نشعر أننا عشنا زمنا – و هو شعور غامض دائما – لا بد لنا من معاودة وضع ذكرياتنا شيمة الأحداث الفعلية ، في وسط من الأمل و القلق في تماوج جدلي فلا ذكريات بدون هذا الزلزال الزمني بدون هذا الشعور الحيوي " . فالشاعر و إن كان وقوفه أمام المكان وقوفا اغترابيا ، إلا أن حركة الزمان ماضيا و حاضرا و مستقبلا أثبتت وجوده الإنساني .[12]

يقول **عنترة بن شداد** : [13]

هَلْ غَادَرَ الشّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالْجِوَاءِ تَكَلَّمِي وَ عِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَ اسْلَمِي

فَوَقَفْتُ فِيها نَاقَتي وكَأَنَّها فَدَنٌ لأَقْضِيَ حَاجَةَ الْمُتَلَوِّمِ

وَتَحُلّ عَبْلَةُ بالْجِوَاءِ وَأَهْلُنَا بالْحَزْنِ فَالصَّمَانِ فَالْمُتَثَلَّمِ

حُيّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُهُ أقْوَى وَأَقْفَرَ بَعْدَ أُمّ الْهَيْثَمِ

تظهر لحظة الاغتراب أمام المكان و أمام النفس ، و كما نعلم فإن عنترة قد عانى من الشعور القاتل بالغربة تجاه مجتمعه و حتى نفسه ، نتيجة للتمييز القبلي ، و كان المكان الذي يحاوره يعتريه الصمت و السكون لأنه كان يناديه " يا دارَ عبْلة بالجِوَاء تكلّمي " ، و تقترن مناداة ديار عبلة بإدراك حالة المكان و التجربة الشعورية التي يعايشها، و إثبات القلق الروحي حين يصبح المكان ذا أبعاد دلالية نفسية ، فغابت الأبعاد المكانية الجغرافية ، و حتى و إن ذكرت أسماؤها إلا أن إحساسه بالغربة و لد عنده مكانا يتلاءم مع تجربته الروحية و معاناته الفردية . و من بداية الوقوف عند المكان ، ندرك تفاصيل المحاورة الروحية بينه و بين الشاعر ، ليتصاعد الشعور بالاغتراب تدريجيا حتى يتيقن بخلاء الديار من أهلها ،" حييت من طلل تقادم عهده . فحركة الزمن هي التي كشفت عن الأسرار الروحية و الشعورية ، و التي تدخل في بناء العلاقة الحميمية بين الإنسان و المكان الذي يحتويه لأنها تنبع من : "رؤية شعرية وإبداعية تحول الأشياء من مجرد أشياء لذاتها إلى أشياء لذات الشاعر، تعكس درجة علاقة الشاعر بالمرجع الخارجي الذي تحيل إليه التجربة وبهذا لا تغدو الأشياء داخل نسيج النص مجرد مفردات، بل حقلاً من العلامات الدالة" ، [14] فتبرز شعرية المكان و جماليته من اكتسابه دلالات جديدة غير الدلالات المتعارف عليها

5 – سيمياء قلق التدافع بين الحياة و الموت :

شكلت الطبيعة الجاهلية بكل موجوداتها ، أرضية خصبة لنمو الصراع بينها و بين الإنسان ، فولدت لديه نظرة ثاقبة تأملية تدبّرية إزاء فلسفة الوجود ، و وقف حائرا أمام صخب الحياة ، و حركتها ، و أمام الموت الذي يختزل المسافات ويمنح ذلك الشعور بالسكينة ليواجه الواقع بذات ممزقة تائهة تبحث لتجد التأويل و القراءة فيما وراء الطلل . كان التقابل بين عالم حاضر و آخر غيبي . أو الحياة و الموت و هو الصراع الأبدي الذي ينبع من غرائبية المكان الطلل، لتكون فجائعية الفناء أشد وقعا و تأثيرا .

إن مساءلة الوجود و محاكاته هي جزء من مساءلة الذات في الوقفة الطللية ، لأن الطلل يشكل : " الجزء الذاتي في القصيدة، الذي يعبر فيه الشاعر عن نفسه؛ عن موقفه من الحياة، والكون من حوله. فصورة الحياة بالنسبة للشاعر الجاهلي تنطوي في نفسه على عناصر خفية أحسها الشاعر إحساسا مهما، وقدر موقفه منها، وربما كان من أبرز هذه العناصر الخفية التي اصطدم بها مع ذلك حسه ، التناقض، واللاتناهي، والفناء .[15] هي لحظة يقف الشاعر أمامها مقيما لنفسه و لمصيره في هذه الحياة . فرغم القفار و الخلاء ، و رغم البكاء و التذكر إلا أن هناك لحظات نفسية و عقلية تظهر للملتقي أنها وقفة عابرة لكن هي في حقيقة الأمر تلامس ذواتنا و تنبأنا بمصيرنا المجهول ، يقول **لبيد بن أبي ربيعة** في مطلع معلقته :[16]

عفتِ الديارُ محلُّها فمُقامُهَا بمنًى تأبَّدَ غَوْلُها فَرِجَـــامُـهَا
فمدافعُ الرَّيَّانِ عرّيَ رسْمُها خلقًا كما ضَمِنَ الوُحِيَّ سِلامُها
دمِنٌ تَجَرَّمَ بعدَ عَهْدِ أنِيسِهَا حِجَجٌ خَلَوْنَ حَلالُـهَا وحَـرَامُهَا

تتعدد الأماكن بتسمياتها ، من منى إلى جبال الغول و الرجام و الريان ، فيصورها لنا تصويرا دقيقا بالتوقف عند كل مكان كان نابضا بالحياة .في وقت مضى ، و لكن اليوم تسكنه الوحشة و الخراب ، و تتسع رؤية الشاعر للمكان حين يبتعد عن تلك النظرة التشاؤمية له لترتسم ملامح الحياة من جديد :

رزقَتْ مرابيعَ النُّجومِ وصابَهَا ودقُ الرواعدِ جوْدُهَا فرهامُها

يأتي عنصر المطر ليضفي دلالة الحياة و النمو و الخصوبة ، تختفي اللوحة الأولى لوحة الموت ، لتأتي اللوحة الثانية و التي تختلف عن الأولى تماما و هي لوحة الحياة ، فيظهر ذاك التباين بينهما و كيف استطاع الزمن أن يشارك في رسم كلتا اللوحتين ماضيا و حاضرا و مستقبلا : « فالزمان ليس عبارة عن ذرات متناثرة لا يربط بينها رابط و لا يؤلف بينها جامع ، و إنما يجب أن يفهم بأن حياة الأفراد و الأمم في صيرورة دائمة و تفاعل مستمر ». [17]

يساهم في نفس الحقل الدلالي للمطر عناصر أخرى مشاركة في تجديد الحياة فيقول :

فَعَلَا فُرُوعُ الأيْهَقَانِ وَأَطْفَلَتْ بالْجَلْهَتَيْنِ ظِباؤها ونَعَامُها

وَالعينُ ساكِنَةٌ عَلى أطْلائِها عُوذًا تَأجَّل بالفَضَاءِ بِهَامُها

إن عرض مثل هذه الصورة للمكان الطلل إنما عرض للحظات الثبات و البقاء في لحظات الفناء و الخراب و التي تعطينا وحدة دالة على القلق تجاه المصير من النهاية الحتمية ، فتملأ النفس بمشاعر الحزن و الخوف .

لقد وقف الشاعر متأملا فلسفة التغيير و التحول من الماضي إلى الحاضر الذي تصارعت فيه قوى البقاء بفعل متغيرات الطبيعة ، و قوى الفناء بفعل حركة الزمان حين معاودته لمساءلة الديار التي ولدت فيه الشعور القاتل بالفناء و الخوف من المستقبل :

فوقَفْتُ أسألُهَا وكَيفَ سُؤالُنا صُمًّا خَوالِدَ ما يَبينُ كَلامُها

عَرِيَتْ وَكَانَ بِهَا الْجَميعُ فَأَبْكَرُوا مِنْهَا وَغُودِرَ نُؤْيُهَا وَثُمَامُهَا

هاهي لحظة اليقين بالعدم قد ظهرت بمعاودة الوقوف عند المكان و سؤاله عن حياة قد كانت هنا ، لكن رحيل سكانها و خلو المكان منهم دل على النظرة المأساوية للشاعر ، و من ثم إحساسه بالفناء ليس تجاه الطلل و لا من سكنوا المكان ، بل تجاه نفسه و قلقه من المستقبل الآتي ، و كان للطبيعة دورا في تغيير نظرة الإنسان تجاه الحياة ، : فمارست اصطفاء لا ضوابط له ، و خلال هذا الإصطفاء صار البشر – في شروط وجودهم الجديدة – يلاحظون بعمق أكبر ، و انفعال أشد مأساة الموت التي تجعل الآخر محل تعاطف ، و تضع الذات الفردية بالتجربة في حالة انتظار لتلك المأساة ، و في تصورنا إن هذا قد دفع بقوة العقل لإلى نشاط لإدراك ماهية الموت كفاجعة و تحول كذا غامض من الحياة النشطة إلى الخمود النهائي [18]

فالمفارقة الزمانية بين الماضي و الحاضر و المستقبل ، إنما تدل على المفارقة و الجدلية القائمة بين الوجود و العدم و التي تعد من أهم أساسيات تكوين الإنسان : و إن مصالح الإنسان في الشروط الجديدة هي في السعي من أجل البقاء في مواجهة الفناء ، وهذا ما يجعل رؤيته مطبوعة بهذه الثنائية الضدية ، فلا يرى الوجود إلا من خلال التضاد بين البقاء و الفناء [19]

كما يقف **النابغة الذبياني** مسائلا ديار من سكنت الديار قائلا :[20]

يا دارَ مَيّةَ بالعَلياءِ فالسَّنَد أقْوَتْ وطَالَ عليها سالفُ الأبَدِ
وقفتُ فيها أُصَيلاً كي أُسائِلُها عَيَّتْ جَوابًا وما بالرَّبعِ مِن أحَدِ

تتجلى المساءلة في الزمن الحاضر عند وقوفه بديار مية ، و هو المكان الطلل ، بالأفعال المضارعة : وقفت ، أسائلها ، فتتداخل عناصر الزمان و المكان و الذات الشاعرة ، و يشير إلى الزمن الماضي بالموت و الوحشة التي خيمت عليها " طال عليها سالف الأبد " . فهذا التداخل صراع بين الماضي و الحاضر ، الماضي الذي يمثل الحياة ، البقاء بوجود بؤرة الوجود دار مية ، و الحاضر بالموت و الفناء بوجود بؤرة العدم ما بالربع من أحد . ففي المكان الواحد تتجاذب أطراف العلاقة بين الوجود و العدم من خلال علاقة التضاد .

أمسَتْ خَلاءً وأمسَى أهلُها احْتمَلُوا أخْنَى عَليها الذي أخْنَى على لُبَدِ

يظهر الفضاء المكاني خاليا و لأجل ربطه بالفضاء الدلالي رسم صورة الفناء و الموت ، من خلال استحضار صورة لبد لقمان ، الحقيقة الثابتة في الوقوف أمام المكان اللغز ، و استكناه أسراره ، و الغوص في أعماق الإنسان باحثا عن حقيقة الفناء التي استيقن الشاعر بوجودها . تألم صحيح بالتذكر ، لكن تأمل طويلا في فلسفة الوجود ليبرز الحركة الدرامية للزمن . التي تؤثر في الطلل كما تؤثر في الإنسان . و تبقى هذه الحركات و العلاقات تتفاعل و تتعالق وفق مستوى واحد و هو هندسة المكان / الطلل . الذي يصور وفقه لحظة التحول ليثبت وجوده أمام المستقبل الغامض .

6 - خاتمة :

إن محاورة المكان / الطلل و استنطاقه و البحث عن أسراره المتخفية ، هي محاورة للذات الشاعرة ، التاريخ ، المجتمع ، الثقافة ، فكان الشاعر متأملا ، متسائلا ، محدقا في مصيره ، يتصارع مع عوامل الوجود لأجل البقاء . فكانت المفارقة و من ثم تجسيد لعلاقة الجدال بين الثابت و المتحول . و التي تعد من أهم جماليات الشعر الجاهلي . و هذه الخطاطة تبين ما سلف ذكره :

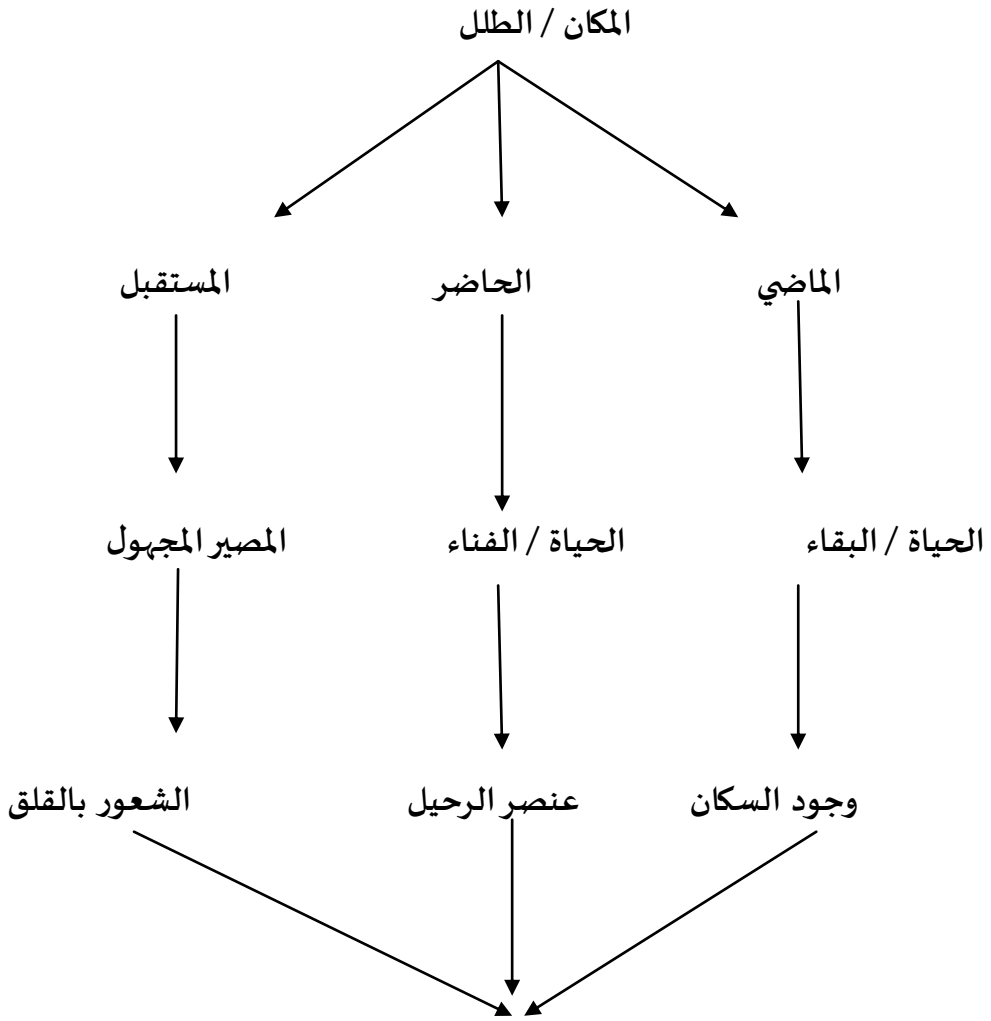

رغم هذا الصراع، فإن المكان / الطلل يشكل اللسان المعبر عن مكنونات النفس و الواقع ، فيه تتفجر لحظة الإبداع بانصهار تلك الوقائع الداخلية و الخارجية بفعل اللغة ، و الخيال الشعري فيمنح طاقة إيحائية و قوة دلالية .

تعددت التجارب عند الوقوف على الطلل ، وتباينت الأمكنة و تعددت هي أيضا، إلا أن السمة التي تجمع بينها هي حركة الزمن التي تضفي عليها ألوانا خاصة، بتقلباته الماضية و الحاضرة و النظرة المستقبلية أيضا، و منه إدراك لتلك العلاقة التي تجمع بين المكان و الزمان و حتى هواجس الشاعر.

الهوامش :

[1] - محمد عزام ، النقد والدلالة ، نحو تحليل سيميائي للغة، وزارة الثقافة، دمشق، 1996، ص8

[2] - G.Genette. Figure2. Edition de Seuil.Paris.1969. P43

[3] - الدينوري بن قتيبة ، الشعر و الشعراء ، تحقيق أحمد محمود شاكر ، دار المعارف القاهرة ، 1967 ، ص 175

[4] - حبيب مؤنسي ، فلسفة المكان في الشعر العربي المعاصر ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق،2001، ص72.

[5] - الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، تقديم عبد الرحمن المصطاوي ، دار المعرفة ، بيروت ، ط 2 ، 2004 ، ص 227

[6] - اعتدال عثمان ، إضاءة النص ، دار الحداثة، بيروت، 1988، ص 6 .

[7] - غاستون باشلار ، جماليات المكان:. ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط5، 2000 ، ص72

[8] - الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، ص 109 .

[9] - سعيد محمد الفيومي ، فلسفة المكان في المقدمة الطللية في الشعر الجاهلي ، مجلة الجامعة الإسلامية ، الدراسات الإنسانية ،القدس ، المجلد الخامس عشر ، الجزء 2، يونيو 2007، ص 258 .

[10] - محمد زكي العشماوي ، قضايا النقد الأدبي و البلاغة ، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر الإسكندرية ، مصر ، ص 147

[11] - يوسف اليوسف ، مقالات في الشعر الجاهلي ، وزارة الثقافة ، دمشق ، سوريا ، 1975 ، ص 120 ، 121 .

[12] - غاستون باشلار ، جدلية الزمن ، تر ، خليل أحمد خليل ، المؤسسة الجامعية للدراسات مجد ، بيروت ، 1982 ، ص 47

[13] - أحمد أمين الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها ، تقديم محمد الفاضلي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، 2005 ، ص 147

[14] - أحسن مزدور ، مقاربة سيميائية في الشعر والرواية: ، مكتبة الآداب، القاهرة، 2000، ص 12

[15] - عز الدين إسماعيل ، روح العصر ، دار الرائد العربي ، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ، سوريا ، 1978. ص 17

[16] - أحمد الأمين الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر و أخبار شعرائها ، ص 101 .

[17] - محمد مفتاح ، في سيمياء الشعر العربي القديم ، دراسة نظرية و تطبيقية ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، 1989 ، ص 70 .

[18] - سعد حسن كموني ، الطلل في النص العربي ، دراسة في الظاهرة الطللية مظهرا للرؤية العربية ، دار المنتخب العربي ، بيروت ، ط 1 ، 1999 ، ص 16 .

[19] - المرجع نفسه ، ص 17

[20] - أحمد الأمين الشنقيطي ، شرح المعلقات العشر و أخبار شعرائها ، ص 227 .